يقظة القدر

قصة

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

إيفان إكسينوف تاجر شاب من تجار مدينة فالديمير ، يعيش فى سعة من العيش ، فهو يملك منزلا ودكاكين . لقد كان إيفان شابا أنيقا يتقد نشاطا وبتوثب مرحا ، يهوى الغناء ويميل — هونا ما — إلى الشراب ، فإذا أسرف فيه عربد . ولكنه حين تزوج عزف عن الشراب إلا صبابات تشهيه بين الفينة والفينة

وفى ذات صيف عقد إيفان العزم على أن يرود معرض نيزنى يشترى ويبيع . وحين أقبل يودع زوجته بادرته بقولها : « لا ترحل اليوم يا إيفان ، لأنى رأيتك الليلة فى حلم مزعج »

فضحك إيفان وهو يقول : « لا عجب إن أنت خشيت أن تنزوى نزوات الطرب حين أغتمر فى نشوة المعرض »

فأجابت الزوجة: لست أدرى مم أخاف؛ ولكننى رأيتك فى منامى تعود من المدينة فتخلع قبعتك فإذا رأسك يشتعل شيبا

فضحك الزوج مرة أخرى وهو يقول : « هذه علامة سعيدة ، سأبيع بضاعتى كلها وأشترى لك من أرباحى بعض الهدايا التى تملأ العرض » وهنا ودع أسرته وأسرع إلى غايته

وفى منتصف الطريق هبط إيفان فندقا يطلب الراحة والمنام . وهناك لقى صديقا من التجار فجلسا معا يتناولان الشاى ويسمران حينا ، ثم انطلقا — بعد حين — كل إلى فراشه فى حجرتين متجاورتين بينهما باب

وعند الفجر هب إيفان ليستأنف رحلته ، فهو قد تعود أن ينام مبكراً وأن يصحو مبكرا . وبعد أن طوى خمسة وعشرين ميلا هبط فندقا آخر ليغذى رواحله وأحمت الخيول تلتهم العلف على حين انتحى إيفان ناحية من الطعام يعزف على قيثارته

وأخذته النشوة فما أفاق إلا على صوت عربة تقف على حين فجأة لدى باب الفندق . وهبط من العربة ضابط وجندبان . وانطلق الضابط من فوره صوب إيفان يسأله : من هو ، ومن أين أتى ، وإلى أين يذهب ، وكيف قضى الليلة الماضية . وهل قابل تاجرا

آخر ؟ وهل قضيا معا الليلة ؟ وهل رأى كل منهما الآخر صباح اليوم ؟ ثم لماذا غادر إيفان الفندق فى غفلة من الناس، عند طلوع الفجر ؟ ...

لقد كان إيفان يسمع هذا السيل من الأسئلة ويجيب وهو فى حيرة . فهو فى سبيله إلى غاية شريفة لم يقترف ذنبا ولم يجترح إثما

وسأل إيفان الضابط : فيم كل هذا ؟

فأجابه الضابط قائلا : « أنا ضابط بوليس الناحية . وأنا أستجوبك لأن التاجر الذى قضيت معه ليلتك الماضية ألفيناه فى الصباح قتيلا . ولا بد أن نفتش متاعك . ثم تقدم الضابط والجنديان إلى متاع الرجل يفتشون ، فعثروا بين متاعه على سكين لوثت بالدم . وصاح الضابط فى وجه إيفان « لمن هذه ؟ » ونظر الرجل إلى السكين الملوثة بالدم وهى تجذب من بين متاعه فارتاع وحاول أن يدفع عن نفسه ؛ ولكن الكلمات ماتت فى شفتيه إلا كلمتين « لست أدرى ... لست أدرى ! »

وقاطعه الضابط قائلا : « عند الصباح وجد التاجر قتيلا قد حزت رقبته . وأنت الرجل الوحيد الذى يمكن أن يرتكب الجريمة . لقد كان الباب مغلقا من الداخل ولم يكن هناك غيرك . وهاهى ذى السكين ملوثة بالدماء بين متاعك ، وهاهى ذى أعصابك تخونك . فحدثنى كيف قتلت الرجل ؟ وكم من المال سرقت ؟ »

وراح إيفان يقسم أنه لم يفعل ، وأنه لم ير الرجل منذ مساء الأمس ، وأنه لا يحمل مالا سوى ثمانية آلاف روبل هى كل ماله هو ، وأن السكين ليست له . ولكن صوته كان مضطربا متكسرا ، وكانت صفرة الخوف تعلو وجهه ورعدة الاضطراب تسيطر على أعصابه كما لو كان هو المجرم الحقيقى

وذهبت الصيحات هباء . وأمر الضابط فقيد الرجل وألقى فى العربة ليودع السجن

وجاء يوم المحاكمة فأدين المتهم بقتل التاجر وسرقة عشرين ألف روبل كانت معه ، فحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة وجلد حتى دمى جلده ، وأرسل إلى سيبيريا ليقضى مابقى من عمره فى العذاب المهين

وذهبت الزوجة إلى زوجها السكين تحمل الأسى واليأس فى صدرها وتحمل على كتفيها أطفالا صغارا لم تتفتح عين واحد منهم — بعد — على الحياة . ورأت زوجها يرسف فى الأغلال الثقال وقد تسربل لباس السجن ، تضمه قضبان السجن ليكون لصا بين اللصوص ، وليكون مجرما بين مجرمين ... رأته على هذه الحال فاستولى عليها الهلع فسقطت فاقدة الوعى فما أفاقت إلا بعد

لأني ... وجدت روحة بلى زوجها وقد عصف بها الحزن والكمد نسأله : « ماذا عسى أن نفعل ؟ » فقال : « يجب أن نلتمس العفو من القيصر ، فهو لن يدع بريئا يهلك بجرة قلم » فقالت الزوجة : « قد فعلت وسكن التماسي . قبل القبول » فأطرق الرجل في يأس واستمرت الزوجة تقول : « لعلك تذكر حديثي ساعة الوداع : لقد حذرتك من السفر في ذلك اليوم ... ولكن حرص أن الزوجات مخلصة الوفية ... حرمني نظر صحيح . فما الذي أفعلت ؟ »

وصاح الرجل من أعماق قلبه « حتى أنا ... حتى أنا بسبب الشك إلى نفسك أنه عض وجهه بكلتا يديه وانخرط في بكاء طويل . ولكن الجنود لم يمهلوا الأسر للتمتع بالبكاء طويلا فأمروا الزوجة والأطفال بالانصراف فخرجوا والرجل ينظر إليهم بوجه الأحمر

واستطاع إيفان بعد حين أن يملك نفسه وأن يسيطر على أعصابه ، فتذكر حديث زوجته وراح يناجي نفسه « إنه ليسعدني أن الله وحده هو الذي يطلع على خائنة الأعين ، وبيده وحده يجب أن نرفع الأكف بالدعاء ، ومنه وحده يجب أن نلتمس الرحمة » وهكذا فقد إيفان كل أمل في الإنسان وأخذ يصلي لله وحده

ومضت ست وعشرون سنة في العذاب المهين ... مضت السنون الطوال وأحالت الرجل الشاب إلى رجل آخر شاب شعره واسترسلت لحيته وانحنى ظهره وران العبوس على وجهه . يمشي في بطء ويمسك عن الكلام فلا يتكلم إلا نادرا . لا تنفرج شفتاه — أبدا — عن ابتسامة ؛ وهو بعد يقضي وقته كله يصلي لله وحده .

وفي السجن تعلم إيفان صناعة الأحذية ، فهي تمر عليه ثقيلا من الزمن بعيدا عن فضاء حاجته . وتعلم من صناعته الشتى كل ما يحتاج القديسون ، فراح يستطلب صناعته منه كل وجد الصور في السجن العام . وكان يذهب أيام الآحاد إلى كنيسة السجن يقرأ الزقاق الدروس ويرتل الأناشيد بصوت فيه النغم الموسيقي الأخاذ

ومضت الأيام فإذا إدارة السجن تكشف عن خلال كريمة اتصف بها إيفان ، فهي ترى فيه الدعة واللطف والاستقامة والدين ، وإذا رفاقه يحسون باحترامه ويشعرون قدرته فيلقبونه مرة « بالجد الأكبر » ومرة « بالقديس » ثم اتخذوه محاميا يدافع عنهم بالحق ويصلح بينهم بالعدل

وامتنعت عن إيفان أخبار أسرته — زمانا — فلا يسمع عنهم شيئا

وفي ذات صباح أقبلت فتاة من المدنيين

إلى السجن ، وتجمع السجناء زمراً والتف القدامى منهم حول الحديثين يسألونهم ويتقصون الأخبار ، على واحداً يسمع شيئا عن أهله وأسرته

وجلس إيفان فى ذلة وانكسار يتسمع إلى حديث رجل طوال متكتل العضل قوى البنية قد شارف على الستين من عمره وقد استرسلت لحيته على صدره — جلس إيفان يتسمع إلى قصة الرجل وهو يحكيها يقول : « يا رفاق ! إنى لم أفعل شيئا سوى أنى وجدت حصانا شد إلى عربة فحككت رباطه وركبته لأبلغ المنزل فى سرعة فقبض على واتهمت بالسرقة . ولما سئلت قلت : لقد أردت أن أبلغ المنزل فى سرعة ثم أطلق الحصان فيعود إلى حيث كان . هذا إلى أن صاحب الحصان صديق حميم . ولكنهم لم يسمعوا لحديثى فجئت إلى هنا فى غير ذنب . وفى الحق لقد ارتكبت فى شبابى جرما كان جزاؤه أن أساق إلى هذا السجن ، ولكنى أفلت من العدالة .. »

فقال له واحد « ومن أين جئت ؟ »

قال الرجل « جئت من فالديمير فأنا من هنالك وهى بلدتى . إن اسمى ما كار وهم يسمونى سيميونيتش »

ورفع إيفان رأسه لدى سماع هذه الجملة وهو يقول « من فالديمير ؟ خبرنى إذن يا سيميونيتش هل تعرف أسرة أكسيونوف التاجر . ألا يزالون أحياء ؟ »

وقال الرجل متعجبا « أعرفهم ؟ وكيف لا ؟ إنى أعرف الكثير عنهم .. إنهم أغنياء ولكن عائلهم هنا فى سيبيريا قد أودع السجن . أما أنت يا جدفكيف جئت إلى هنا ؟ »

ولم يشأ إيفان أن يتحدث عن نفسه ؛ ولكنه أرسل من بين التنهدات العميقة كلمات متقطعة « إن ذنبى قد ذهب بى إلى السجن لأعيش فيه ستا وعشرين سنة »

فقال سيمونيتش « أى ذنب اقترفت ؟ »

فأجاب إيفان فى أسى « لا بأس فإنى — ولا ريب — أستحق كل ما قاسيت »

ثم سكت . ولكن رفاقه أخذوا يقصون على الوافد الجديد قصة إيفان كلها وهو يسمع فى دهشة وينظر إلى إيفان فى عجب ثم قال « عجيب ، عجيب جدا ! ولكن كيف أصبحت شيخا هكذا ؟ »

وتحب الرفاق من كلمات سيميونيتش وتحلقوا حوله يمطرونه بوابل من الأسئلة يريدون أن يستطلعوا جلية الخبر ولكنه لم يجب إلا بقوله « إنه عجيب — يا رفاق — أن نلاقى هنا »

وزلت الكلمات فى أذنى إيفان فخيل إليه بأن هذا الرجل يعرف سر مقتل التاجر فقال له « لعلك سمعت يا سيميونيتش عن

مقتل التاجر ! »

فقال له « نعم فإن الشائعات قد جابت الآفاق ، ولكن عدا شيء انطوى منذ زمان وطمست الأيام آثاره فنسيته الذاكرة »

فقال له إيفان « ولكن العالم سمعت عن القاتل »

فضحك سيميونيتش وهو يجيب « لا شك أنه الرجل الذي وجدت السكين بين متاعه وإذا كانت السكين قد دست بين متاعك فالذي فعل ذلك شيء حتى يدان . ولكن كيف يستطيع رجل أن يدس سكينا في حقيبتك وهي تحت رأسك ثم لا تستيقظ »

وسمع إيفان كلمات الرجل فأيقن أن هذا الرجل هو القاتل الحقيقي . وصدمته الحقيقة فانطوى على نفسه طول الليل يحبر همومه وبين عينيه أخيلة لا حصر لها تضطرب فلا تستقر : لقد رأى زوجته في الشباب والجمال والمرح كيوم ودعها لينطلق إلى المعرض ، وسمع كلماتها وضحكاتها ترن في أذنيه . ورأى طفليه الصغيرين : الكبير في معطفه الأنيق ، والآخر على صدر أمه تحنو عليه . ثم تراءت له نفسه شابا في عنفوان الشباب والقوة والنشاط ، يمرح متى شاء ويطرب إذا أراد . ثم مرت الحوادث أمام ناظريه فإذا هو في شرفة الفندق يعزف على قيثارته ، ثم إذا هو بين يدي البوليس ، ثم أمام المحكمة ثم ... إلى أن انطوت ست وعشرون سنة وهو حبيس هذا السجن المغبض . أفكان كل ذلك في سبيل هذا الجرم الأثيم سيميونيتش ؟ وثارت ثائرة إيفان بدفعه إلى أن ينطلق إلى هذا الوغد ينتقم منه شر انتقام ، ولكنه كظم ثورته في نفسه وراح يردد أدعيته طول الليل . غير أن الأدعية لم تكن في هذه المرة قادرة على أن تبلغ شغاف قلبه فتبعث فيه الهدوء والراحة . وفي أثناء النهار كان إيفان معرضا عن غريمه فلا يراه ولا يجالسه إليه ولا يحدثه

ومضى أسبوع وإيفان لا ينام الليل ولا يقر قراره بالنهار

وفي ذات ليلة ذهب إيفان يجول في أنحاء السجن فرأى فوهة خندق قد حفر تحت أحد الرفوف التي ينام عليها السجناء فوقف هنيهة يستطلع الخبر ، فإذا سيميونيتش يقفز من داخل الخندق وينظر إلى إيفان في رعب . وحاول إيفان أن يسير في سبيله ولكن الرجل أمسك به يحدثه في فزع حديث الحفرة وحديث الأمل في الهرب من السجن وهو يقول : « لا بد أن تحفظ السر فنحن هنا مستمكن أنت أيضا من الهرب ، فإذا أفشيت السر فإنهم سيجلدونني حتى أموت ولكني سأقتلك أنت أولا »

فقال إيفان وثورة الغيظ تسرى فى عروقه « أما أنا فلا أبتغى الهرب ، وأما أنت فلست فى حاجة إلى قتلى لأنك قتلتنى منذ زمان طويل . وسواء أخفيت السر أم أذعته فإن إرادة الله نافذة حتما »

وفى اليوم الثانى عثر الجند على موضع الخندق ، وجيء بالحاكم — حاكم السجن — فى ثورة يستجوب السجناء ليرى أيهم ارتكب هذا الجرم . ولكن واحدا من المسجونين لم يستطع أن يخون سيميونيتش ويكشف عن السر . وفى النهاية توجه الحاكم إلى إيفان وهو يقول « أنت رجل صادق فأخبرنى الحق » واختلطت مشاعر الرجل فاهتزت أعصابه وتناهبته عواطف مختلفة وتجاذبته آراء متناقضة تركته لانفعالات شتى فنظر إلى عزيمه نظرة خاطفة ثم جلس فى الحاكم وهو يقول : « إننى لا أستطيع أن أتحدث . إن إرادة الله تمنعنى من الكلام ، فافعل بى ما تشاء ، فأنا بين يديك »

وحاول الحاكم أن يستل من إيفان اعترافا ولكن جهوده ذهبت كلها هباء ، فلم ينطق بكلمة غير سؤال

وسمع الرجل بأنه أسدى يدا إلى واحد من الناس فساقنى — أول الليل — على سريره وأخذت سنة من النوم تداعب جفنيه . وقبل أن يستغرق فى نوم عميق سمع بأن رجلا قد جلس على حين غرة على سريره . فاستيقظ بنظر فإذا سيميونيتش يجلس بجواره ، فقال له « والآن ما تريد ؟ ماذا جاء بك ؟ » وسكت سيميونيتش فلم يجبه بكلمة وهب إيفان من رقاده وزجره قائلا « ماذا تريد ؟ إذهب عنى ! سأنادى الحارس إن لم تذهب حالا ! »

ولكن سيميونيتش أقبل يهمس فى أذنى إيفان فى ضراعة « اعف عنى ، اعف عنى يا إيفان ، فإننى أنا الرجل الذى قتل ابن جيرانى وخبأ السكين بين متاعك . لقد كنت على عزم أن أقتلك أنت أيضا ولكنى سمعت صوتا خارج الحجرة فخبأت السكين بين متاعك وقفزت من الشباك أطلب الهرب »

وتحير إيفان فما يدرى ما يقول . ولكن سيميونيتش هبط من فوق السرير وركع فى الأرض وهو يقول « اعف عنى ، اعف عنى يا إيفان ! فسأعترف بكل ما كان وسيخلى سبيلك فتذهب إلى أهلك »

فقال له إيفان « إن من الحق علينا أن نتحدث ، ولكننى قد قضيت من أجلك سنا وعشرين سنة . فإلى أين أستطيع أن أذهب ؟ لقد مات زوجى وسيبى أولادى فإلى أين أذهب الآن ؟ »

ولكن سيميونيتش لم يرفع رأسه وراح